دراسات الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ
ISSN 1813-7733
المجلد الثالث, ديسمبر 2006م (ص105-114)

موقف المستشرقين من الوحي: دراسة تحليلية

محمد رشيد زاهد*

تقديم :

لقد وقف الاستشراق من القرآن الكريم موقفه من الإسلام تماما, موقف الخصومة أوالعداء والحقد والكراهية ، وكان القرآن الكريم أهم هدف يتواصى المستشرقون بالتصويب إليه والطعن والتشكيك فيه ، فقاموا بدراسة جميع جوانبه : مصدره ووحيه وجمعه وتدوينه وقراءته و تفسيره ولغته وأسلوبه وناسخه ومنسوخه إلى غير ذلك مماله صلة بالقرآن وعلومه .

ففي هذا المقال الوجيز أود أن أحلل موقف المستشرقين من الوحي الإلهي وشبهاتهم الموجهة إليه ثم أقوم بمناقشة آرائهم مناقشة علمية هادئة و دحضها بأدلة دامغة مقنعة، وقبل أن أخوض في صلب الموضوع أود أن أعطي فكرة موجزة حول مفهوم الوحي الإلهي وأنواعه وكيفياته ، وظاهرته وإمكان وقوعه .

مفهوم الوحي لغة :

الوحي في اللغة : وحيت إليه وأوحيت إذا كلمته بما تخفيه عن غيره، وأصله الإشارة السريعة، وقد يكون علي سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد أو بإشارة بعض الجوارح، [1]فيكون معناه اللغوي : الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى عن غيره.

والوحي بهذا المعنى اللغوي يطلق علي :

1- الإلهام الفطري للإنسان (هو مايلقيه الله في روع الإنسان) كما حدث لأم موسى ، قال تعالى :(وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ...) [2]

2- الإلهام الغريزي للحيوان كالوحي إلى النحل ، قال : (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون[3]

3- الإشارة السريعة في سبيل الرمز والإيماء ، قال تعالى : (فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا) [4]

4- وسوسة الشيطان وتزيينه الشر في نفس الإنسان ، وفي ذلك يقول عزوجل : (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم) [5]

5- ما يلقيه الله إلى ملائكة من أمر ليفعلوه ، قال : (إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتو الذين امنوا ...) [6] [7]

أما الوحي شرعا :

كلام الله تعالى المنزل علي نبي من أنبيائه إما بكتاب أوبرسالة ملك، أو منام ، أو إلهام[8] وعرفه الإمام القسطلاني بقوله : " إعلام الله سبحانه و تعالى ـ عن أمور و قضايا ومعارف لمن اختاره الله لذلك ، واصطفاه لتلقي رسالة بطرق خفية وسرية لايعرفها البشر ، ولا يستطيعون اكتناه أسرارها ، لأنه ليست خاضعة لمعارف البشر العادية ، وليسوا معتاديها أيضا " [10]

* المحاضر في قسم علوم القرآن والدراسات الإسلامية,الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ, بنغلاديش

أنواع الوحي :
بين الله سبحانه وتعالى في القرآن أن وحيه إلى رسله يأتي على ثلاثة أنواع :

1- إلقاء المعنى في القلب، فالموحى إليه لايسمع صوتا ولايرى ملكا ، وإنما يلقي الله في قلبه ما يريد إلقائه إليه .

ب- الكلام من وراء حجاب ، ومعناه أن يسمع الرسول كلام الله ما يريد إلقاه إليه.

ج- تكليم النبي بواسطة جبريل ، وهذا النوع كما لايخفى وحي بواسطة الملك . و النوعان الأولان وحي بلا واسطة . وهذه الأنواع الثلاثة تشير إليها آية قرآنية حيث قال ـ تعالى ـ : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليم حكيم) [11]

ومن الوحي ما يكون مناما صادقا يجئ في تحققه ووقوعه كما يجئ فلق الصبح في تبلجه وسطوعه ـ كما جا ء في الحديث عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : كان أول ما بدأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لايرى رؤيا إلا جاء مثل فلق الصبح : [12] ولكن الوحي بواسطة جبريل هو أشهر الأنواع وأكثرها ، ووحي القرآن كله من هذا القبيل و هو المصطلح عليه بالوحي الجلى . [13] حيث قال- تعالي- : (نزل به الروح الأمين علي قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين) [14]

كيفية نزول الوحي :
إن ملك الوحي يهبط هو الآخر علي أساليب شتى : فتارة يظهر للرسول في صورته الحقيقية الملكية ، وتارة يظهر في صورة إنسان يراه الحاضرون ويستمعون إليه، وتارة يهبط علي الرسول خفية، فلا يرى، ولكن يظهر أثر التغير و الانفعال علي صاحب الرسالة فيغط غطيط النائم ، ويغيب غيبة كأنها غشية أو إغماء ، وما هى في شيء من الغشية والإغماء ، إن هى الا استغراق في لقاء الملك الروحاني ، وانخلاع عن حالته البشرية العادية ، فيؤثر ذلك على الجسم ويثقل ثقلا شديدا قد يتصبب منه الجبين عرقا في اليوم الشديد البرد . وقد يكون وقع الوحي على الرسول كوقع الجرس إذا صلصل في أذن سامعه ، وذلك أشد أنواعه . وربما سمع الحاضرون صوتا عند وجه الرسول كأنه دوي النحل ، لكنهم لا يفهمون كلاما ولايفهمون حديثا، أما هو- صلوات الله وسلامه عليه ـ فإنه يسمع و يعى ما يوحى إليه ، ويعلم علما ضروريا أن هذا هو وحي الله دون لبس ولاخفاء .[15] وكما جاء عن ذلك في الحديث عن عائشة ـ رضى الله عنها- قالت ، إن الحارث بن هشام سأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كيف يأتيك الوحي؟ قال : أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشدها علي، فيفصم عني ، وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا ليكلمني فأعى ما يقول ، قالت عائشة :" ولقد رأيته ينزل عليه الملك في اليوم الشديد البرد فيفصم منه وإن جبينه ليفصد عرقا "[16]

ويقول العلامة القرطبي : لم يكن محمد بدعا من الرسل ، ولا أول نبي يخاطب الناس باسم الوحي ويحدثهم بحديث السماء ، فمن لدن نوح تتابع أفراد مصطفون أخيار ينطقون عن الله ولا ينطقون عن الهوى ، ولم يكن الوحي الذى أيدهم به الله مخالفا الوحي الذى أيد به محمدا ، بل كانت ظاهرة الوحي متماثلة عند الجميع : لأن مصدرها واحد ، وغايتها واحدة . [17] كما قال الله- تعالى- : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) [18]
إمكان وقوع الوحي :

وقد تحدثنا في السابق في ضوء الأيات القرآنية والأحاديث النبوية على وقوع الوحي فعلا، ويمكن وقوعه في ضوء الأدلة العلمية العقلية أيضا ، وأورد العلامة الزرقاني في كتابه دلائل علمية كثيرة على إمكان وقوعه، وفيما يلي أقتبس منه خلاصتها بعبارة موجزة :

أولا : أتظن ـ أيها القارئ الكريم ـ أن المخلوق يستطيع أن يؤثر في نفس مخلوق آخر ذلك التأثير بواسطة التنويم المغناطيسي ، ثم لايستطيع مالك القوى و القدرأن يؤثر في نفس من شاء من عباده بواسطة الوحي؟! كلا ثم كلا (إنه على ما يشاء قدير) [19]

ثانيا : العلم الحديث استطاع أن يخترع من العجائب ما نعرفه ونشاهده وينتفع به مما يسمونه التليفون وكذلك الجوال والإنترنيت واللاسلكي والميكرفون والراديو (الإذاعة) وعن هذه الطرق أمكن الإنسان أن يخاطب من كان في آفاق بعيدة عنه وأن يفهمه ما شاء ويرشده إلى ما أراد ، فهل يعقل بعد قيام هذه المخترعات المادية أن يعجز الإله القادر عن أن يوحي إلى بعض عباده ما شاء عن طريق الملك أو غيره؟ تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا [20]

ثالثا : استطاع العلم أيضا أن يملأ بعض أسطوانات من الجماد الجامد الجاهل بأصوات وأنغام وبقرآن وأغان وكلام على وجه يجعلها حاكية له بدقة وإتقان، وبين أيدنا من ذلك شيء كثير لاسبيل إلى إنكاره ويسمونه (بالفونغراف) أبعد هذه المخترعات القائمة يستبعد على القادر ـ تعالى ـ بواسطة ملك ومن غير وساطة ملك أن يملأ بعض نفوس بشرية صافية من خواص عباده بكلام مقدس يهدي به خلقه ويظهر به حقه على وجه يجعل ذلك الكلام منتقشا في قلب رسوله حتى يحكيه بدقة وإتقان كذلك؟ [21]

رابعا : أننا نشاهد بعض الحيوانات في الدنيا تأتى بعجائب الأنظمة والأعمال مما نحيل معه أن يكون ذلك صادرا عن تفكير أو غريزة ساذجة فيها ، ومما يجعلنا نوقن بأنها لم تصدر في ذلك إلا عن إرادة عليا توحي إليها وتلهمها تلك العجائب و الغرائب من الصناعات و الأعمال و الدقة و الاحتيال . وإذا صح هذا في علم الحيوان فهوأولى أن يصح في عالم الإنسان حيث استعداده للاتصال بالأفق الأعلى يكون أقوى وأخذه عنه يكون أتم ، ومن ذلك ما يكون بطريق الوحي . [22]

خامسا: قرر العلم الحديث أنه شوهد على بعض الناس أنهم يظهرون بمظاهر روحانية تعتبر من الخوارق التي لم يكن يحلم بحدوثها العلماء علي حين أن هؤلاء الذين أتوا بتلك الظواهرالخارقة كانوا في حالة ذهول ، وقد استحال تعليل ما أتوا تعليلا ماديا ، يستند إلى الحس ، وقد اختبروا تلك الظواهر واستحضروا لشهودها أكبر مشعوذى الأرض ، فشهدوا بأنها ليست من الشعوذة في شيء ، وإنماهى أحداث روحانية لا أثر فيها للمهارة وخفة اليد . تلك حقيقة من حقائق العلم الحديث ، يقررون فيها أنه قد يفتح على بعض الناس في حالة من حالات ذهولهم بانكشفات وظواهر روحية، فكيف يستبعد بجانب الكشف العلمي أن يفتح الله على بعض الممتازين من خلقه بانكشافات علمية عن طريق الوحي ، بينما هم من كملة العقول و الأخلاق؟ لقد أسفر الصبح لذي عينين[23]

الوحي من ناحية العقل :

وقداتضح أمام القراء بأن الوحي ممكن لأجل الأدلة العلمية التي سردناها ، ونقول بالدليل العقلي هنا على أن هذا الأمر الممكن قد وقع فعلا : ذلك أنه قد أخبر بوقوعه الصادق المعصوم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكل ما أخبر بوقوعه الصادق المعصوم فهو حق ثابت وذلك هو المطلوب . [24]

موقف المستشرقين من الوحي :

فنورد أولا شبهاتهم حول الوحي الإلهي ثم نأتي الردود العلمية عليها مسلسلة. ذهب المستشرقون

مذاهب شتى في تفسير الوحي الإلهي المنزل علي النبي العربي ، ولكنهم أجمعوا على إنكاره ، وأتوا بتفسيرات وتعليلات و تأويلات حاولوا من خلالها تفسير التصرفات التي تنتاب الرسول إبان نزول الوحي عليه ، على أن انكارهم للوحي قادهم بداهة إلى إنكار المصدر الإلهي للقران الكريم الذى أجمعوا أيضا على بشريته وبيان ذلك أن المفكر الفرنسي " جوستاف لوبون" (Lebon) يرى أن التصرفات التي تعتري الرسول إبان نزول الوحي الإلهي عليه ما هى إلا أصابته بالصرع الذي ينتابه في هذه اللحظات ، فيعتريه احتقان فغطيط، فغثيان ـ ويرى أنه يجب اعتبار محمد من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية كأكبر موسسى الديانات ـ ويقول في هذا الصدد : ولاأهمية لذلك فلم يكن ذوالمزاج البارد من المفكرين هم الذين ينشئون الديانات ، ويقودون الناس ، وإنما أولو الهوس هم الذين مثلوا هذا الدور ، وهم الذين أقاموا الأديان ، وهدموا الدول ، وأثار الجموع وقادوا البشر ، ولو كان العقل لا الهوس هو الذى يسود العالم لكان للتاريخ مجرى أخر ـ [25]ويذهب المستعرب الألماني " هو برت جريم "H. Grimme" إلى أن محمدا لم يكن في بداية أمره يبشر بدين جديد ، ولكنه اقتنع بضرورة إصلاح مجتمعه في مكة الذي يعاني من الفساد ، فوضع خطة لمساعدة الفقراء عن طريق فرض ضريبة علي دخول الأغناء، ولكنه فهم من أن الحظ لا يؤاتيه بقبول هذ الحل من قبلهم كما أنه لم يتخيل خطة لصراع الطبقات على طريقة القرنين ـ التاسع عشر والعشرين ، ومن هنا فقد استخدم فكرة الحساب يوم القيامة كوسيلة للضغط على هؤلاء الأغنياء لقبول خطته الرامية إلى الإصلاح الاجتماعي في مجتمعه ، ففرض عليهم الزكاة لتطهير أموالهم وأنفسهم ـ [26] أما المشترق الإنجليزي " مونتجمرى وات ،، (M. WATT) فهو ينكر الوحي الإلهي وأن مصدر القرآن هو الخيال الخلاق الذي يتمتع به الرسول مثلما تمتع به بقية البشر الممتازين ، كما يرجع إلى اللاوعي الجماعي طبقا لرأى "يونج" وقد حاول التوفيق بين هذين الرأيين إلا أنه يؤكد عدم تفسير الوحي بإصابة النبى بالهلوسة و الصرع وغيرهما من الأمراض العصبية ويؤكدأنه كان صادقا ومخلصا في دعوته إلا أنه نفي الوحي الإلهي طبقا للنظرية الإسلامية شأنه في ذلك شان بقية أضرابه من المستشرقين [27] ويصل "مكسيم رودنسون" إلى نتيجة مفادها أن الوحي الذي ينزل على الرسول لايمكن تفسيره بالأمراض النفسية التي قد تنتاب الإنسان ، ولا بتدخل الشياطين ، والأرواح الشريرة التى كان العرب يعزون إليها الكهانة وسجع الكهان، ولكن ما يراه ويسمعه الرسول هو نتيجة وصوله إلى إحدى درجات التصوف التي لم تصل إلى الاتحاد بالله ولكنها تقع بين مرحلة الزهد والتأمل والتعبد وبين مرحلة الاتحاد مع الله والاندماج فيه. [28]

وعند ما عالج " جولد زيهر" (G. Ziher) هذا الموضوع في ثنايا بحوثه الإسلامية ، فإنه أرجع القرآن الكريم إلى مصادر داخلية وخارجية كما أسلفنا ، وبذلك فهو أيضا ينكر الوحي الإلهي طبقا للرؤية الإسلامية ، ويرى أن تبشير النبي العربي ليس مزيجا منتخبا من معارف وأراء دينية ، عرفها أو استقاها بسبب اتصال بالعناصر اليهودية و المسيحية و غيرها ، وتأثر بهذه الأفكار تأثرا وصل إلى أعماق نفسه فصارت عقيدة أن طوى عليها قلبه ، كما صار يعتبر هذه التعاليم واجبا إلهيا ، فأصبح ـ بإخلاص ـ على يقين بأنه أداة لهذا الوحي. [29]

المناقشة والردود العلمية علي آرائهم :

وفي هذه العجالة لانريد إيراد بعض المستشرقين المتعصبين الحاقدين خاصة القدماء منهم الذين حاولوا تفسير الوحي بإصابة الرسول بالصرع وأن أعراضه كانت تبدو عليه ، إذ أفاق من نوبته تلا على المؤمنين ما يقول إنه وحي الله إليه ، في حين لم يكن هذا الوحي إلا أثرا من نوبات الصرع . والسبب لعدم إيرادنا لهذه الآراء بالتفصيل ونسبتها إلى أصحابها ـ أنها قد قيلت في زمن كان المستشرقون يحاولون نقض الإسلام ومعتقداته بإيراد شبهات لا أساس لها من العلم ، وأنهم كانوا متحاملين أكثر من كونهم متعقلين . وأن الكتاب الغربيين أنفسهم قد ردوا علي هذه الشبهات ، ونقضوها من أساسها ، وقد ذكر " مونتجمرى وات" و "رودنسون" طبقا لمصدريهما الذين أشرنا

إليهما بطل هذا الرأى وسخفه ، وأن الحالة التي تعترى الرسول في أثناء تلقيه الوحي تختلف عن المصابين به فعلا ، وآية ذلك أن الذي يصاب حقيقة بالصرع لا يذكر إطلاقا مامر به إبانها ، بل إنه ينسى هذه الفترة من حياته بعد إفاقته من نوبته نسيانا تاما ، ولايذكر شيئا ما صنع ، أوحل به خلال ذلك.

إن حركة الشعور و التفكير تتعطل فيه تمام التعطل . وهذه الأعراض التي تصيب المرضى من الصرع لا تنطبق وما يعتري الرسول من حالات نفسية في أثناء نزول الوحي عليه ، لأنه كان يذكر بدقة بالغة ما يتلقاه وما يتلوه بعد ذلك على أصحابه ، كما أن نزول الوحي لم يكن مقترنا دوما بالغيبوبة الجسمية مع تنبه الإدراك الروحي غاية التنبه ، بل إنه كثيرا ما ينزل الوحي والنبي في تمام يقظته العادية. [30]

وملخص القول في هذه النقطة إن الصرع يعطل الإدراك الإنساني ، وينزل بالإنسان إلى مرتبة آلية يفقد أثنائها الشعور الحس ، أما الوحي فهو سمو روحي اختص الله به أنبيائه ليلقي إليهم بحقائق الكون اليقينية العليا كي يبلغوها للناس وقد يصل العلم إلى إدراك بعض هذه الحقائق ومعرفة سننها ، وأسرارها تعد أجيال وقرون ، وقد يظل بعضها لايتناوله العلم . وما ذلك تبتقى حقائق يقينية يهتدي بها المؤمنون الصادقون . [31]

ويجب استبعاد صفات الهوس و الصرع والمرض النفسي التي اتهم بها المستشرقون النبي في أثناء نزول الوحي عليه ، وخاصة " جويستاف لوبون،، ذلك أن التاريخ قد أنبأنا أن النبي لم يكن يتصف بهذه الصفات قبل البعثة بل إنه يصفه لنا بالعاقل والصادق الأمين . وإنه لم يكن قبل البعثة من أولئك الذين تعتريهم الوساوس و السلوك الشاذ ، والتصرف الغريب ، بل كان بعيدا عن سلوك الكهان وسجعهم وتمتعهم ، وتصرفاتهم الغريبة . ولم يكن شاعرا يعتريه شيطان الشعر فيؤثر في قوله وتصرفاته، وإن معاصريه الذين أجهدوا أنفسهم في بيان مساوية لم يصفوه بالمرض و الوسوسة و الصرع بالرغم من وصفهم له بالسحر والكهانة و استقائه عن معلوماته عن آخرين .

لقد وصف النبي شخصيا ظاهرة الوحي المنزل عليه وصفا دقيقا حينما شبهه أحيانا مثل صلصلة الجرس ، وهو أشد عليه فيفصم عنه وقد وعى ما قال، وأحيانا يتمثل له الملك رجلا فيكلمه فيعى ما يقول ، وفي كلتا الصورتين كان النبي واعيا وعيا كاملا بما يوحى إليه ، وقد كرر ذلك مرات عديدة فأثبت لنفسه الوعي الكامل والإدراك السوى لحالته قبل الوحي وحالته بعد الوحي ، وحالته في أثناء الوحي ، وهذا التاكيد ينفي عن االرسول شبه الهلوسة ، والمرض النفسى ، والصرع الذي ينتاب من يصابون به ، وعن طريق وعي الرسول الكامل لما يوحى به لم يخلط مرة واحدة بين شخصيته الإنسانية المأمورة المتلقية وشخصية الوحي الآمرة المتعالية [32] أما ما ذهب إليه " هو برت جريم" وأمثاله من أن النبي لم يكن في بداية أمره يبشر بدين جديد، فهو تفسير مادي متستر ومتعسف أراد به صاحبه تطبيق النظريات الماركسية والمادية الحديثة علي نشأة الديانة الإسلامية في المجتمع العربي وإن كان يشوبه التميز الطبقي بينالأبناء الفقراء و بين الأحرار العبيد ، إلا أن المعايير المادية الحديثة التي أفرزتها تطورات الثورة الصناعية الأوربية وما نشأ عنها من صراع الطبقات الذي تطور عبر العصور و الأجيال لا يمكن أن يقاس بما كان عليه المجتمع العربي البسيط في ذلك الزمان ثم إن الإسلام لم يأت فقط للإصلاح الاجتماعي .ولكنه جاء نظاما متكاملا شاملا لمناحي الحياة كلها دينا ودولة . فهو لم يقتصر على إلغاء الطبقات و تحرير العبيد و إعادة توزيع الثروة بين أفراد المجتمع، ولكنه نظم العقيدة، فدعا إلى التوحيد وأصر على إزالة عبادة الأصنام وإعادة الوحدة إلى أبناء العروبة ، ودفع بهم خارج جزيرتهم لنشرتعاليمه التي تنادي بالحرية والإخاء و المساواة ، وأنشأ نظاما سياسيا واجتماعيا واقتصاديا متكاملا . وبالتالي فإن تفسير ظاهرة الوحي ونشأة الدين الإسلامي تفسيرا ماديا صرفا لا يلاقي القبول العلمي الصحيح ، ولايمكن الاستناد إليه في نفس نبوة الرسول العربي ليجعل منه "جريم" وأمثاله مصلحا واجتماعيا

يدعو إلى الاشتراكية فحسب.[33] واذا ما فحصنا ما ذهب إليه " مونتجمرى وات" من أن الرسول شأنه شأن بعض عظماء الرجال المتمتعين بذلك "الخيال الخلاق" وأن مصدر الوحي المحمدي هو هذا " الخيال الخلاق" و اللاوعي الجماعي"فإننا نجد هذه التعليلات خالية من الأدلة والبراهين العلمية الصحيحة . ذلك أن الخيال الخلاق الذي تحدث عنه " وات" قد فسره شخصيا بأن رجال الدين يرجعونه إلى الله ، ومن خلال هذا التفسير يكون الله هو مصدر هذا الخيال الخلاق، ولا أحد سواه خاصة اذا كانت هذه الأفكار الخلاقة أعلى من الإنسان ذاته وأسمى من عتبة الشعور ، ثم أن مسألة "اللاوعي الجماعي " الذي عزا إليه "وات" ظاهرة الوحي المحمدي هو من الأمور المعقدة التي تستحق منا بيانا شافيا لدحضها . ذلك أن اللاشعور أو اللاوعي المشترك أو الجماعي ينتمي إلى ما نطلق عليه باسم "الكشف" أو الالهام أو الحدس الباطني أو الشعور الداخلى ، فهذه الأمور مهما تباينت تسمياتها غالبا ما تكون ثمرة من ثمار الكد والجهد أو أثرا من آثار الرياضة الروحية أو نتيجة للتفكير الطويل، فلا تنشئ في النفس يقينا كاملا ولا شبه كامل، بل يظل أمرا شخصيا ذاتيا لا يلتقي الحقيقة من مصدر أعلى و أسمى .[34]

ويذهب مالك بن نبي في هذا الصدد إلى القول بأن الكشف كالإلهام من ألفاظ علم النفس المحدثة التى ماتبرح حتى عند القائلين بها موغلة في الإبهام لاحتلالها حاشية اللاشعور وهي حاشية – كما يوحى اسمها –أبعد ماتكون عن حالات الوحى والشعور، فإذا قيل في إنسان : إنه من أولى الكشف والالهام لم يسم به ذلك الى درجة النبوة والوحي ،لأنه في كل وحي وعيا وفي كل نبوة شعورا بمعناها وإدراكا لمغزاها، وإنما يرمى باللاوعي من فقد الوعي ، ويوصم باللاشعور من حرم الشعور .[35]

ومن هنا بطلان تفسيرات" وات" بالخصوص خاصة إذا علمنا أن الحقائق الدينية و الأمور الغيبية التي تخبر عنـها ظاهرة الوحي ، لاتخضع للخيال الخلاق ولا إلى اللاشعورالجماعي أوالفرد التي تحاول اكتشاف المجهول عن طريق الفراسة والحدس الباطني ، ولأنها لا تخضع أيضا إلى مقاييس الحس الظاهري الذي اعتده الناس، لأن ظاهر ة الوحي عبارة عن انسلاخ الذات الشرية للموحى إليه واتصاله بالذات الروحانية ، والتي تخضع لتصور حوار علوي بين الذاتين ، ذات متكلمة آمرة معطية ، وذات مخاطبة مأمورة متلقية .[36]

أما ما ذهب إليه "وات" في قوله إن كلمات الوحي كانت لها صلة بمحمد قبل أن يصير واعيا بها وإن للرسل شخصيتين إحداهما واعية شاعرة ، الأخرى واعية ولا شاعرة، أى أن لمحمد ازدواج الشعور واللاشعور ، فإن السرد التاريخي لنزول الوحي وطريقة تلقى الرسول له وإبطائه عليه ومعاناته في تلقيه ما ينفي هذا الازدواج الموصوف به . بل إن العرب أنفسهم قد تملكهم الحيرة في تفسير هذه الظاهرة ، فأحيانا يصفونه بأضغاث الأحلا م ، ومرة يقول شاعر مفتر ، ومرة أخرى بالجنون والهلوسة والمرض . ولكن الثابت تاريخيا أن الرسول منذ اللحظة الأولى التي نزل عليه القرآن فيهـا كان واعيا تماما بما يوحى إليه ، وكان يبلغ رسالة ربه وتعليماته بصورة دقيقة ، وكان يحرص على ألا يضيع منه حرف مما ينزل عليه وكان يجهد نفسه في حفظ ما يوحى إليه، حتى أمره الله بالتريث وكان يأتيه الوحي في كل زمان و في كل مكان ، وهو في كامل وعيه ويقظته . فكان القرآن ينزل علي قلب النبي في الليل الدامس والنهار الاضحيان وفي البرد القارس أو لظى الهجير أو في استجمام الحضر أو في أثناء السفر وفي هدأة السوق أو وطيس الحرب وحتى في الإسراء إلى المسجد الأقصى ، والعروج إلى السموات العلى ،[37] وفي أثناء ذلك ـ كله كان وعى النبي كاملا ، وكان نقله لما يوحى به إليه صحيحا كاملا متقنا.

وأخيرا فإن ماذهب إليه "وات" في قوله من أنه يمكن الجمع بين اللاوعي المشترك وبين الآراء الإسلامية التقليدية بأن "الملك" وضع الكلمات في ناحية من نواحي الوجود المحمدى يسمى " باللاوعي" وأنها برزت من هنا إلى وعيه فهو كلام مردود عليه ، ذلك أنه إذا قبل" وات" أن

"الملك" وضع الكلمات في ناحية من نواحي الوجود المحمدي... فما فائدة نظرية " اللاوعي المشترك" ؟ ثم لما ذا يضع الملك هذه الكلمات في اللاّوعي المحمدي أولا ثم يدعها تبرز إلى الوعي، حتى يتخيل الرسول أنه يرى ملكا يحدثه بكلام لم تكن له من قبل صلة به ؟ وإذا كان من الممكن أن يضعها في اللاوعي فما الذي يمنع منذ وضعها من البداية ؟

واذا كانت الكلمات من ملك فمعنى ذلك أنها شيء جديد لم يكن يعرفه محمد و لا مجتمعه ، ولكن نظرية " اللاوعي المشترك" كما شرحها صاحبها " يونج" وكما وافقه عليها" وات" تقتضى أن تكون هذه الآراء معبرة بطريقة ما عن المجتمع ومتوافقة مع مشاعره ومصالحه ، ومصاغة بمقولاته ومبنية على مسلماته [38] أما ما ذهب إليه "جولد زهير" وأضرابه من استمداد الرسول معارفه من مصادر داخلية وخارجية ... وكذلك قوله : إن الوحي المحمدي هو عبارة عن اجترار الرسول لتلك الأفكار الخارجية إبان عزلته ، وإن ما يصيب الرسول إبان فترة نزول الوحي عليه عبارة عن مسألة نفسية ترجع إلى تشبع المرء بحالة خاصة من فرط استغراقه فيها، فإن هذه الفرضية حاولت تفسير القرأن من خلال علم النفس وهو تفسير خاطئ ، لأن علم النفس لم يصل بعد إلى درجة من الدقة والتطور بحيث يفرض طريقته في البحث علي الميادين الأخرى حتى يمكنه تفسير ظاهرة النبوة على ضوء التحليل النفسي الحديث. [39]

ثم إن القرآن الكريم لوكان مصدره محمدا لكان من الفخر له أن ينسبه إلى نفسه ، ويدعي لنفسه القدسية بل الألوهية إن شاء ، ولا نرى مانعا من ادعائه بذلك طالما كان الوحي الذي ينزل عليه لم يؤمن قومه بمصدره الإلهي بالرغم من اعترافهم له بالقوة العظيمة . فهولاء كبار القوم يذهبون إلى عمه عارضين عليه الاجتماع بابن أخيه مخيرين إياه بين عدة أمور كالرئاسة، والمال، والحسب ، والغنى ، السؤدد حتى يقلع عن دعوته. ويرفض الرسول هذه العروض جميعا ولا يرضى إلا بالوحدانية التي بسببها تدين لهم العرب ، ويحكمون بها العجم ، كل ذلك يؤكد عدم بشرية القرآن ، وحقيقة الوحي الإلهي الذي ينزل عليه من لدن عزيز قدير ، وهو في هذا الشأن تكون هذه الظاهرة لديه متماثلة عند جميع الأنبياء الآخرين ، طالما كان المصدر واحدا والغاية واحدة .ومن هنا كان حرص القران على تسمية ما نزل علي قلب محمد وحيا، ليشابه مدلول الوحي بين جميع النبيين تشابه اللفظ الدال عليه عند ما يقول : (والنجم اذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى، إن هو الا وحي يوحى)[40]

أما ما ذهب إليه "رودنسون" من أن الوحي الذي ينزل على الرسول هو عبارة عن وصوله إلى إحدى درجات التصوف التي لم تصل بعد إلى رتبة الاتحاد بالله . أى أن " رودنسون" يريد أن يقول إن الوحي المحمدي هو عبارة عن ذلك الكشف الذي عرفت البشرية منها ألوانا كالشعراء والمتصوفين وبعض الكهان والعرافين ..... وهذا الكشف أو الإلهام يكون غالبا نتيجة التفكير الطويل و التأمل الشديد والرياضة الروحية المجهدة والسحر المتواصل وغيرها من العوامل النافعة عن ذات البشرية الداخلية .

والرد علي هذا الرأي كما أشرنا إليه عدم مساوي الكشف والإلهام الإلهي ، لأن لكل نبوة شعورا أو إدراكا ووعيا كاملا، بينما الكشف والإلهام لا يرتقيان إلى درجة النبوة و الوحي. ومن العجب إننا لا ندري كيف وصل " رودنسون" إلى تلك النتيجة العلمية التي حاول من خلالها البرهنة على أن النبي كان صوفيا . فالصوفية لون من ألوان السلوك يجتنب فيه الذين يسلكونه الترف ويختار البساطة في لباسهم ومعاشهم ، كما يعني هذا الإصلاح والاجتناب الاختياري للملاذ العابرة ، والابتعاد عن الحياة الاجتماعية، خصوصا الزواج وكبح جماح النفس ، وتطهير ها ، والبساطة التي ترفض كل ترف و أبهة،هكذا نرى أن هذه التصرفات منافية للتعاليم الإسلامية التي ترفض العوزبية و ترفض إجتناب الملذات العادية المباحة وترفض الزهد والتصوف على طيريقة الرهبان و القساوسة ، ومن ثم فإن وصف الرسول بالمتصوف ، وأنه قد بدأ في تسلق مراتبه حتى

وصل إلى درجة التأمل ولم يصل إلى درجة الاتحاد بالله .....هو قول لا يسنده دليل علمي أو واقعي ، ولأن هذه المراتب جميعها رتبت وصنفت بعد أن أخذت الصوفية مكانتها في المجتمع الإسلامي . وبعد أن أختلطت بمؤثرات خارجية كالهندوسية ، والنصرانية والفارسية ، بعد أن أصبحت طقوسا وشعائر واختلط فيها الحابل بالنابل ، واختلط فيها سمو الفكر والزهد بالشعوذ والتحايل .[41]

خلاصة البحث:

هكذا نصل في نهاية هذا البحث إلى خاتمة وخلاصة مفادها: صحة الوحي الإلهي الذي ينزل علي الرسول عن طريق جبريل- عليه السلام -. وهذا الوحي خارج عن الذات المحمدية وليس أثرا من آثار المرض ، أوالهلوسة أو الجنون ، وليس تعبيرا عن اللاوعي الجماعي أو الشعور، وليس أثرا من آثار الزهد و التصوف الذي أخذ بهما الرسول قبل البعثة ، وليس أثرا من الاثار الخارجية والداخلية التي تأثربها الرسول سواء أكان من العرب قبل الإسلام أو من اليهود والنصارى المقيمين بمكة و المدينة إبان البعثة النبوية . ومن هنا تنهار كل قول المستشرقين بالخصوص . وما علينا إلا ان نؤمن بأن الوحي هو ما يكلف الله به أنبيائه من آياته وكتبه لتبليغها إلى عباده مهما اختلفت صوره وتعددت ، تصديقا للآية الكريمة :

(وماكان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء)

الهوامش :

1- الراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ، بيروت ، دار المعرفة، د.ت، ص 515
2- القصص : 7
3- النحل : 68
4- الأنعام : 112
5- الأنعام : 121
6- الأنفال : 12
7- د. القصيبي محمود زلط ، مباحث في علوم القرآن ،بيروت ، دارالمعرفة، ص 21
8- المرجع السابق ، ص 22
9- القسطلاني ، إرشاد الساري لشرح صحيح البخارى ج1 ، ص 48
10- د. ساسي سالم الحاج ، الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسة الإسلامية مالطا ، مركز دراسات العالم الإسلامى ، ط 1،ج1،ص351
11- الشورى : 51
12- صحيح المسلم ، الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، (بيروت : طبعة دار الفكر 1400هـ) كتاب الإيمان، ج1، ص 140
13- محمد عبد العظيم الزرقاني ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، (دارإحياءالكتب العربية د.ت) ج1،ص57
14- سورة الشعراء
15- المرجع السابق ، ص 57
16- انظر : ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري ،أحمد بن محمد القسطلاني (دار صادر بيروت) ج1، ص57-58
17- الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن، أبوجعفر محمد بن جرير الطبري (القاهرة : دار المعارف 1374هـ) ج6، ص20
18- النساء : 163
19- مناهل العرفان ، ج 1، ص 63
20- المرجع السابق ، ص63
21- المرجع السابق ، ص63
22- المرجع السابق ، ص63
23- المرجع السابق ، ص65
24- المرجع السابق ، ص66
25- جوستاف لوبون : حضارة العرب (ترجمة زعيتر ـ بيروت 1399هـ) ص 141 وما بعدها
26- د. ساسي سالم الحاج : الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، ص ـ354
27- المصدر السابق ـ ص 356
28- المرجع السابق ، ص 358
29- جولد زهير : العقيدة والشريعة في الإسلام ، ص6
30- المرجع السابق ـ ص 26
31- محمد حسين هيكل، حياة محمد(ط ه ، 1952 م) ص 31
32- د. صبحي الصالح ، مباحث في علوم القرأن (دار العلم للملايين، ط 16، 1985)ص 28
33- راجع : الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية 361

34- انظر : د. صبحي الصالح : مباحث في علوم القرأن (دار العلم للملايين ط 16، ،1985م) ص 26

35- الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الاسلامية ، ص 362

36- المصدر السابق ، ص362

37- الزركشي ، البرهان في علوم القران (دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة 1957 م - ج1) ص 198

38- د. جعفر شيخ الأرض ، مقال بعنوان " منهج مونتجمرى وات في دراسة نبوة محمد و مناهج المستشرقين " ص 234- 235

39- الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الاسلامية ، ص 364

40- (سورة النجم : 1-4)

41- الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية ، ص 365-366

42- (سورة الشورى: 51)